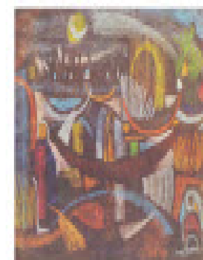


الأقلام

تصفح العدد

عنوان المقالة: بين العلم والفن بما فيه الشعر

بقلم: نوري_جعفر

رقم العدد: 11

تاريخ الإصدار: 1 نوفمبر 1976

عدد المشاهدات: 69

- العودة لمقالات العدد

بين العلم والفن بما فيه الشعر

د . نوري جعفر

من طريف ما يروى عن اينشتين ١٨٧٩–١٩٥٥ **الفيزيائي الالماني المشهور قوله انه** تعلم من ديستويفسكي ١٨٢١–١٨٨١ الكاتب الروسي اكثر مما تعلمه من اي عالم من علماء الطبيعة او الرياضيات حتى نيوتن ١٦٤٢–١٧٢٧ عالم الفيزياء البريطاني المشهور وكرس ١٧٧٧–١٨٥٥ عالم الرياضيات الالماني وصاحب نظرية الهندسة اللا اقليدسية التي استندت اليها في الاصل نسبية اينشتين ، وفي هذا القول الذي – لا نشك في صدقه ودقته – تلميح ضمني لموقع الخيال في العلم وكون الفنان (الكاتب هنا : الاديب ديستويفسكي) مثل العالم يقوم بتجارب مختبرية ويهيء ظروفا موضوعية معينة ومواقف خاصة يستند اليها وينطلق منها ، ويلاحظ بدقة متناهية الكيفية او الهيئة التي تعبر فيها **عن نفسها بعض خصائص الطبيعة** ، الجامدة والحية بما فيها الاجتماعية في حالة الانسان او خصائص الشخصية [illegible] لبحثه ، كما ان الفنان يسعى ايضا الى الملاءمة او المواءمة بين عناصر موضوعه ليجعلها مترابطة بشكل مألوف كما سنرى ، وهذا هو الذي راود فكر اينشتين عندما اشار – في مناسبة اخرى – الى ان التفكير ينطوي دائما على عنصر شعري .

يسير العلم وفق معطيات نظرية وقوانين او قواعد عامة لا يجوز تخطيها ، في حين ان الفن وفي مقدمته الشعر يخضع من ناحية محتواه – **بالدرجة الاولى والاهم** – لحالات فردية او شخصية ذاتية خاصة يعيشها صاحبها في هذه اللحظة او هو تعبير عن تلك الحالات وان كانت ادوات التعبير (اللغة مثلا في حالة الشعر) خاضعة في الاساس لقواعد مسلم بها (من ناحية النحو التصريف والبلاغة مثلا) اي ان القانون العلمي ظاهرة موضوعية مسلم بها (من الناحية النسبية على كل حال ، في حالة عدم اكتشاف قانون علمي جديد ينفي القانون السائد) وان جميع المشتغلين بالعلم يعملون ضمن اطار ذلك القانون لا خارجه . اما في حالة الفن وفي مقدمته الشعر فانه وان وجدت قواعد فنية عامة معترف بها في هذا المجتمع او ذاك وفي هذه الفترة الزمنية او تلك الا ان الطابع الذاتي للفنان (وبخاصة الفنان الاصيل) هو المتغلب .

ولهذا نجد الظاهرة (الطبيعية او الاجتماعية الواحدة) يعبر عنها تعبيرات مختلفة رسامون او شعراء متعددون ، واحيانا الرسام الواحد والشاعر نفسه في مناسبات مختلفة ، حسب حالاته النفسية المختلفة ، وهذا يعني بعبارة اخرى ان العالم ينصب اهتمامه على الكشف عما في الطبيعة المستقلة عنه في حين ان الفنان يسعى الى الكشف عن الاثر الذي تتركه الطبيعة في نفسه في هذه اللحظة او تلك .

ومع ان الصور الفنية – وبخاصة الشعرية –

تختلف الى درجة التناقض احيانا عن الصور التي يرسمها لنا العالم عن الطبيعة والاشخاص ، الا انها اجمل منها رونقا واعمق تغلغلا من الناحية الجمالية ، وعلى الرغم من كون الصور العلمية للاشياء والاحياء تجعلنا اقدر على فهم تركيبها وتهيء لنا فرصة السيطرة عليها ــ وهذا هو اساس تقدم الحضارة المادية ــ الا ان حاجتنا للتمتع بالصور الفنية وبخاصة الشعرية منها لا تقل اهمية والحاحا عن ذلك بأي حال من الاحوال . وهذا يعني بعبارة اخرى ان مسخ الحقائق في الشعر مثلا ينبغي الا يفسر بانه يغض من منزلة الشعر او مكانته في الحياة او انه يجعل دراسة الشعر ثانوية الاهمية بالنسبة للعلوم الطبيعية التي تقع واياها على طرفي نقيض .

وكلما كان الفنان اصيلا مرهف الحس ، وكانت جوانبه الذاتية اشد وضوحا كان اقدر على مسخ الحقائق العلمية في صوره الفنية (واخيلته الشعرية) وهذا يعني بعبارة اشمل ان محور العمل العلمي هو الطبيعة (الجامدة والحية بما فيها المجتمع) التي يعيش فيها في حين ان شخصية الفنان نفسه (كما تنعكس فيها الطبيعة) هي محور فنه ، معنى هذا بعبارة اخرى ان العالم لا يعني بالجانب الجمالي للطبيعة في علمه ، في حين ان العكس هو الذي يحصل عند الفنان ، اي ان جوهر الفن هو الكشف عن الخواص الجمالية للاشياء .

لا شك في ان موضوع التعبير الفني هو حياة المجتمع في الاعم الاغلب ، كما ان الفن يصور الطبيعة ايضا ، ولكن التصوير الفني للطبيعة لا يخلو مطلقا من المشاعر الانسانية (الذاتية) لان الفنان لا يصور الطبيعة تصويرا فوتوغرافيا (اذا افترضنا انه يستطيع ان يفعل ذلك) وانما هو يصورها تصويرا فنيا جماليا ، اي ان الفنان عندما يصف هذا الجانب او ذاك بين جوانب الطبيعة (الجبال الشاهقة مثلا) فان وصفه هذا ينطوي في الوقت نفسه على الطبيعة الموضوعية للشيء المراد وصفه وعلى الانطباعات التي يتركها في نفسه ذلك الشيء . وبعبارة ادق انه يصف الطبيعة عبر مشاعره ، والفنان حين يعبر عن البيئة المحيطة (الواقع الموضوعي) على هيئة صور فانه يقوم بتثمين ايديولوجي وجمالي لها : انه يعبر عن موقعه ازاء الواقع وفق مثله الجمالية العليا اي ان الفن هو بايجاز شكل جمالي خاص من اشكال الادراك الاجتماعي وهو تعبير في الاصل (انعكاس) عن البيئة التي يعيش فيها الانسان ، وهذا التعبير الفني يحصل على هيئة صور (مادية في الرسم مثلا او ذهنية ، اخيلة كما هي الحال في الشعر) في حين ان التعبير العلمي يحصل عبر المجردات ، الرموز والمعادلات الرياضية ، والصور الفنية Images ، تختلف عن الصور الفوتوغرافية الخالية من الناحية الجمالية (باستثناء الصور Pictures الملونة التي هي في عداد الفن لانها تنطوي على العنصر الذاتي كما بينا ، ومع ان الصور الفنية للظواهر الطبيعية او الاجتماعية تختلف اختلافا جوهريا عن الصور العامة المعبر عنها بالمفاهيم المجردة Concepts الا انها تجريد Abstraction من الواقع او انعكاس عنه هذا الانعكاس يحصل في حالة العلم بشكل موضوعي كما بينا بعيدا عن المشاعر او الانفعالات او العواطف (الناحية الذاتية) ولهذا فانه يخضع لتفسير واحد ، في حين ان الصور الفنية مشبعة بالجوانب الذاتية الى هذه الدرجة او تلك كما ذكرنا ولهذا فانها تقبل تفسيرات متعددة ومتباينة ، وعنصرها الذاتي هذا ذو جانبين يتصل احدهما بالفنان نفسه ويتعلق الاخر بالمفسرين وهذا هو الذي يحول دون ترجمة التراث الفني من لغة الى اخرى او من الشعر الى النثر وبالعكس ضمن اطار اللغة الواحدة . وهذا يعني بعبارة اشمل ان اهم مزايا الصور الفنية تكمن في انها تقبل مختلف التفسيرات وتتحمل مقدارا كبيرا من الاستنباطات ، أي انها متعددة الجوانب وتعبر ايضا عن جوانب متعددة من البيئة ، بالاضافة بالطبع الى تغلغل الجوانب الذاتية منها من ناحية صاحبها الاصلي (من ناحية الفنان الاخر الذي يفسرها ، وهذا هو الذي يجعلها تحتمل اكثر من معنى وتخضع لاكثر من تفسير كما ذكرنا في حين ان كل مدرك عقلي علمي (نظرية ، معادلة ، مبدأ) يخضع في العادة لتفسير واحد وذلك لضعف الجانب الذاتي فيه الى درجة التلاشي من ناحية صاحب النظرية ومن ناحية من يتصدى لتفسيرها .

لا شك في ان الصور الفنية وبخاصة الشعرية منها تعبر عن رونقها المميز واناقتها الجمالية بمخالفتها الواقع المحسوس رغم صلتها به وانبثاقها في الاصل التكويني منه . وكلما ابتعدت الصورة الفنية وبخاصة الشعرية ــ عن الواقع المحسوس كلما اصبحت اكثر اناقة واصالة . وقديما قيل في الشعر العربي (اعذبه اكذبه) اي ابعده عن الواقع . وهذا يعني كما بينا ان الشعر يصدر عن المشاعر التي يعبر فيها الواقع المحسوس عن نفسه . والفن الاصيل هو الذي يعبر باقوى صورة ممكنة عن مشاعر صاحبه ويستثير الى الحد الاقصى مشاعر المستمتعين به .

اما الصور التي لا تفعل ذلك ــ ولو في ادنى المستويات ــ فلا تمت الى الفن بصلة ، ومن هذه الزاوية يمكن النظر الى الشعر الوعظي مثلا الذي هو كلام منظوم فقط وليس بشعر من الناحية الفنية الجمالية . واما الصور العلمية فهي بخلاف ذلك على خط مستقيم وتزداد علميتها كلما ازدادت بعدا عن المشاعر ، يصدق هذا على الصور نفسها كما يصدق ايضا على ادوات التعبير عنها ، فلا نسمع مثلا ان توصف فتاة طويلة العنق في علم الاحياء بانها (بعيدة مهوى القرط) او يوصف الاسد بانه (سيد الحيوانات او توصف الشمس عند الغروب كما قال ابن الرومي :

« وقد رنقت شمس الاصيل ونفضت
على الافق الغربي ورسا مذعذعا
وودعت الدنيا لتقضي نحبها
وشول باقي عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوار وهي مريضة
وقد وضعت خدا الى الارض اخرعا
كما لاحظت عوادها عين مدنف
تجرع من أوصابه ما تجرعا
وظلت عيون الروض تخضل بالندى
كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا
يراعينها حورا اليها دوانيا
ويلحظن الحاظا من الوجد خشعا

لقد مر بنا القول بان التعبير الفني عن الطبيعة يحصل عبر الصور Images وان التعبير العلمي عنها يحدث عبر المدركات العقلية المجردة Concepts

ونود ان نبين الآن ان هذا الاختلاف بينهما ليس حاسما أو فاصلا من الناحية النوعية وذلك ان الصور الفنية المعبر بها عن الظواهر البيئية الموضوعية هي في جوهرها تجريد عن تلك الظواهر وليست نسخا مادية طبق الاصل Replica عنها شأنها في هذا شأن المدركات العلمية . فجوهر التعبير عن (الفني والعلمي) عن الطبيعة واحد وهو تجريد عنها لا نسخة طبق الاصل كما ذكرنا . فهما اذن يعيدان الظواهر الموضوعية في ملامحها الكبرى . ومع ذلك فان ظاهرة التجريد النسبية في الحالتين (الفنية والعلمية) لا تنفصل انفصالا تاما ومطلقا عن البيئة الموضوعية . وهذا يعني ان التجريد العلمي (المستند في الاصل الى الرياضيات العالية : علم المجردات) لا ينعزل عن البيئة المادية المحسوسة شأنه في هذا شأن الصور الفنية المجردة ايضا عن البيئة الموضوعية كما ذكرنا . اي انهما معا يعيدان ـ كل بطريقته الخاصة ـ الظواهر الموضوعية في معالمها او ملامحها الكبرى المميزة وهما بالطبع لا ينفصلان انفصالا تاما ومطلقا عن العالم المحيط بالانسان . ان التجريد العلمي اذن غير قابل للانعزال بشكل مطلق وتام عن الامور المحسوسة الخارجية . غير ان هناك فرقا بين التجريدين (العلمي والفني) لكنه فرق في الدرجة لا في النوع لان التجريد العلمي ابعد عن الواقع المحسوس من نظيره الفني . اي ان الصور الفنية عن الطبيعة اقرب الى الطبيعة من زميلتها العلمية .

توصل بعض المعنيين بدراسة الصلة بين العلم والفن الى استنباطات كثيرة من ناحية طبيعة الانتاج الفني والعلمي ومن حيث الخصائص التي ينفرد بها كل منهما . واكثر تلك الاستنباطات تداولا بين الناس في الوقت الحاضر قولهم مثلا : ان العلم ذو نتائج تطبيقية عملية : تكنولوجية (نفعية) في حين ان العكس هو الواقع في حالة الفن . وهذا يعني ان للعلم اغراضا اخرى يسعى الى تحقيقها باعتباره اداتها في حين ان غرض الفن ذاتي كامن في طبيعته الخاصة : لاغراض التلذذ او الاستمتاع .. فالعلم ـ برأيهم ـ يستخدم في الانتاج : لزيادة كميته وتحسين نوعيته ولرفع مستوى معيشة الناس وتحسين اوضاعهم المادية والفكرية . اما الفن فذو صفة تجريدية ذاتية غير عملية بنظرهم . معنى هذا بعبارة اشمل ان غرض العلم السيطرة على الطبيعة وغرض الفن الاستمتاع بجمالها . وعندي ـ اذا كان لي عند كما يقول الجاحظ ـ ان هذا الرأي وان كان معقولا ومقبولا في بعض الاحيان ومن بعض الوجوه الا انه ليس كذلك على هذا الوجه من وجوه الاطلاق وذلك لان العلم النظري في ارفع مستوياته (والرياضيات العالية بصورة خاصة ونظرية المجاميع بصورة اخص والتيبولوجيا Typology) يقترب من الفن الى درجة الانصهار فيه . كما ان الفن بدوره (من الجهة الثانية) غير منعزل انعزالا تاما ومطلقا من نشاط الانسان الاجتماعي الرامي الى السيطرة على الطبيعة واستثمارها لمصلحة الانسان : من ناحية كونه (في اضعف الاحتمالات) عامل حفز للانسان وتنشيطه وحثه على العمل (بمختلف الوسائل الفنية المستطاعة : الشعر : المسرح : القصة : النشيد ، الغناء مثلا) . واذا كان العلم يجهز الانسان بالتكنولوجيا (ادوات السيطرة على الطبيعة : المكائن : الالات : الاجهزة الالكترونية) فان الفن يمده بالحوافز الدافعة لتحقيق هذه السيطرة من الناحية الفعلية ويضفي عليه ايضا صفة الارتفاع بالطبيعة الى مستويات رفيعة من الجمال والاناقة والانسجام . ومن هذه الزاوية فان حاجة الانسان الى التعرف علميا على الشمس مثلا من الناحية الفلكية والانتفاع بطاقتها لاغراض الصناعة والزراعة لا يقلان عن حاجته الى الاستمتاع بجمال الشمس من الناحية الفنية بأية حال من الاحوال . استمع الى هذه الابيات الرائعة التي يصف بها رجل من بني الحارث بن كعب الشمس :

مخبأة أما اذا الليل جنها
فتخفى وأما بالنهار فتظهر
اذا انشق عنها ساطع الفجر فانجلى
دجى الليل وانجاب الحجاب المستر
وألبس وجه الارض لونا كأنه
على الافق الشرقي ثوب معصفر
تجلت وفيها ـ حين يبدو شعاعها
ولم يعل ـ للعين البصيرة منظر
عليها كروع الزعفران يشبه
شعاع تلالا فهو أبيض اصفر
فلما علت وابيض منها اصفرارها
وجالت كما جال المنيح المشهر
وجللت الافاق ضوء ينيرها
بحر لها وجه الضحى تتسعر
ترى أيظل يطوى حين تبدو وتارة

تراه اذا زالت عن الارض ينشر
كما بدأت ـ اذا اشرقت ـ في مغيبها
تعود كما عاد الكبير المعمر
وتدنف حتى ما يكاد شعاعها
يبين ـ اذ ولت ـ لمن يتبصر
فأفقت فرونا وهي في ذاك لم تزل
تموت وتحيا كل يوم وتحسر

او الى هذه الابيات الانيقة التي يصف بها الشمس ايضا شاعر لبناني معاصر هو المرحوم الشيخ عبدالحسين الصادق :

أبنت الصبح كم أرعبت قلبا
وكم أدهشت في معناك لبا
فلم تستبق للظلما هزيعا
ولا لكواكب الجوزاء سربا
جبين الشرق منك احمر لطما
وخد الغراب منك اصفر رعبا
أمامك ترسلين بياض شعر
وخلفك تسحبين وجاه سحبا
طلعت بميعة الفتيات زهوا
وسرت بهدجة الشيخات دبا
أراك وانت جارية رخاء
سبقت الطرف حين يرد هدبا
أراك وانت سافرة المحيا
سدلت من السنا عليك حجبا
فأنت مع التبرج بنت خدر
وطالعك المبين هو المخبا
أراك تبدئين الناس ظلا
وانت تقطعين الظل اربا

هذه الصور الفنية المترفة في وصف الشمس ستبقى خالده ما بقيت الشمس والانسان . في حين ان الصورة العلمية الفلكية للشمس معرضة للتحوير او التعديل وحتى الالغاء في ضوء تقدم العلم كما هو معروف .

ومن الاستنباطات الاخرى المشار اليها قولهم ان العلم يعبر عن الطبيعة تعبيرا موضوعيا دقيقا وامينا ويتعامل معها بالرموز والمجردات وبالمعادلات الرياضية [الفكر المجرد المستند الى المنطق] . في حين ان الفن ينحو منحى مغايرا ويستعمل الصور الذهنية الحسية ـ بدل الرموز ـ وهو ايضا يستند الى الخيال .

وهذا القول مردود ايضا بهذا الوجه من وجوه الاطلاق : ففي العلم والفن خيال ومنطق : تفكير بالمجردات وصور ذهنية : مع اختلاف نسبي بينهما في شكلها ومدى الاعتماد عليها وذلك لاختلاف طبيعة الفن عن طبيعة العلم في الشكل والمحتوى . ومن تلك الاستنباطات ايضا قولهم ان العلم يسير من المجرد الى المحسوس : يبدأ بالمجردات وينتهي عند القضايا الحسية : يبدأ بالتعميم وينتهي عند التخصيص . اما الفن فيجري بنظرهم على العكس من ذلك . وقولهم هذا مردود ايضا بهذه الصورة من صور الاطلاق كما ان قضية المحسوس والمجرد هي في جوهرها قضية نسبية فما كان محسوسا بالنسبة للعالم المختص (نظرية آينشتين في معادلاتها الرياضية : مثلا معادلته الرياضية المعروفة : $E-NC^2$ هي مجردة بالنسبة لغيره . هكذا ومع ذلك فان الاتجاه العام في الفن هو الجنوح نحو الصور الحسية (البصرية: كما هي الحال في الرسم والنحت والشعر) او الصور الحسية السمعية كالموسيقى في حين ان العلم ـ وبخاصة النظري منه ـ ينزع نحو التجربة . وهذا يعني ـ بعبارة اشمل ـ ان العلم والفن يلتقيان في بعض النواحي او يتفقان في بعض الصفات المشتركة وان كان لكل منهما خصائصه المميزة التي ينفرد بها . ومع ذلك فاننا عند ما نوازن مثلا بين عملية الابتكار (الابداع : الخلق) الفني وبين نظيرتها فيمجال العلم نجد انالعناصرالمشتركة بينهما تتجاوز نواحي الاختلاف . ولادراك العلاقة بين العلم والفن ادراكا مستوعبا وعميقا لابد من النظر الى كل منهما من ناحية كونه عملية حية يعبر منها نشاط الانسان الخلاق عن نفسه بهذا الشكل او ذاك لا ان ننظر اليهما من ناحية النتائج التي يتوصل اليها كل منهما على انفراد .

اهم مصادر البحث

(1) Dewey, John: Art as Experience, New York, Minton, 1934.
(2) Lunacharsky, A.: On Literature and Art, Moscow, Progress, 1966.
(3) Mechenko, A. and Others, Problems of Modern Aesthetics, Moscow, Progress, 1969.
(4) Plekanon, Art and Social Life, Moscow, Foreign Languages Publishing, no date.